

## القومية العربية والسياسة التحررية

قال محمد المبارك: «ان الاتجاه الذي تسير فيه جبهة التجمع، وان كانت في سياستها الخارجية تسير على أساس الحياد الايجابي، ليس اتجاهاً سليماً يحافظ فيه على خصائص القومية العربية التي يفترض انه يدافع عنها ويحميها، بل هو اتجاه تنهار فيه هذه الخصائص أمام التيارات الشعبوية، ويكون خدعة وضحية للنزعات الشعبوية والتيارات العالمية التي تصبح طاغية ومسيرة للاتجاه العربي، ورابطة له بعجلة أحد المعسكرين من الواجهة الفكرية والعقائدية. وان الاتجاه التحرري السليم من الواجهة الفكرية العربية هو ذلك الذي يحارب المعسكر الاستعماري، ويعامل المعسكر الصديق معاملة الند للند، والصديق للصديق، لا معاملة التابع الذي يفتح باب بلاده على مصراعيه لغزو فكري وغير فكري». وقد عرض «الرأي العام» هذا الحديث على الاستاذ ميشيل عفلق. بوصفه الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي، فقال بالتعليق عليه<sup>(1)</sup>:

\*\*\*

كل رأي له معنيان في ان واحد: المعنى النظري المجرد، والمعنى العملي المرتبط بالظرف الذي يقال فيه هذا الرأي، وبالتالي الذي يمكن ان يحدثه. ولننظر الآن إلى الرأي الذي ادلى به الأستاذ محمد المبارك على ناحيته النظرية والعملية، فهو يقول: «ان اتجاه جبهة التجمع القومي، وان كانت في سياستها الخارجية تسير على

(1) أعيد نشره في جريدة «البعث» في أيار ١٩٥٧.

أساس الحياء الايجابي، ليس اتجاهاً سليماً يحافظ فيه على خصائص القومية العربية، بل هو اتجاه تنهار فيه هذه الخصائص امام التيارات الشعبوية التي يكون لها الغلبة». أن هذا القول يعني أن سياسة التحرر والحياد الايجابي، أتاحت الفرصة للحزب الشيوعي لمضاعفة نشاطه الفكري والعقائدي، نتيجة لوقوفه في صف الدفاع عن حرية الأمة العربية واستقلالها ضد الهجوم الاستعماري الطاغي، وهذا واقع لا ننكره. ولكن قول الأستاذ المبارك يفترض أشياء ثلاثة لا نقره عليها، أولاً، أن خصائص القومية العربية كانت قبل السياسة العربية التحررية هي السائدة، وصاحبة الغلبة والسيطرة دون منازع. ثانياً، أن هذه الخصائص العربية شيء جامد ساكن، يحافظ على سلامته ونقاؤه، بالعزلة والحجب، ويتعرض للضياع والانهار، إذا خرج الى الهواء الطلق وواجه اتجاهات وعقائد مختلفة عنه. ثالثاً، أن خصائصنا وشخصيتنا القومية شيء منفصل عن مصيرنا السياسي والاجتماعي، وعن حريتنا واستقلالنا ووحدتنا وتقدمنا. ونجيب أولاً بأن خصائص القومية، أو الاتجاه العربي العقائدي، لم يكن قبل ظهور السياسة التحررية سائداً مسيطراً، بل كان دوماً موضع حرب خبيثة وهجوم لئيم من قبل الدعاية الغربية الاستعمارية التي مازالت منذ أن دخل الاستعمار أرض العرب في المغرب والمشرق - تستخدم جميع الوسائل هدم قوميتنا العربية والتشكيك في مقوماتها، والظعن في تاريخها، والحؤول دون انبعاثها وتماسكها. وقد تجلى ذلك في اصطناع التفرقة العنصرية داخل الأمة الواحدة، وإثارة النعرات الطائفية والاقليمية، ومحاولة استغلال الدين لتفتيت القومية العربية، واستغلال التقدمية الزائفة لتفسيخ الدين والقيم الروحية. وكل ذلك بقصد إيقاف اليقظة العربية التي تقدمت واقتربت من النصر رغم هذه العوائق كلها. ولم يعرف الوطن العربي منذ مائة عام حرباً دعائية واستعمارية كالتى يشنها علينا الاستعمار اليوم، سواء في الخارج أو في الداخل بشرائه الأرقام والدعاة. ونظرة واحدة الى صحافة البلد، تربنا ان تسعة أعشارها منساقه مع دعاية الغرب الاستعمارية.

ثانياً - أن قوميتنا العربية التي استطاعت أن تستيقظ وتأخذ ملامحها وتهتدي الى طريقها رغم كل هذا التخريب الاستعماري، قد قوي ساعدها واشتد. وبلغت من

النضج حداً لم يعد يخشى عليها معه أن تفتح على الاتجاهات العقائدية وان تتفاعل معها، بل على العكس فإن هذا الانفتاح يغذيها ويقويها ويساعدها على توضيح معالم شخصيتها وخصائصها. وإذا كان هناك من مبرر قبل عشر أو عشرين سنة للتخوف على القومية العربية من غزو العقائد الأخرى لها فان هذا التخوف لم يعد له من مبرر اليوم. ويجب أن نعرف أن البعض عندما يظهرون تخوفهم من الدعاية العقائدية الشيوعية على قوميتنا العربية، فإنهم يهدفون من وراء ذلك إلى اصطناع مبرر لتغيير اتجاه السياسة العربية التحررية التي نسير عليها، وهم بهذا لن ينقدوا عقيدتنا القومية من الدعاية الشيوعية، بل يسلمونها وحيدة عزلاء لحرب غير متكافئة بينها وبين الدعاية للغربية الاستعمارية بكل ماتملكه من وسائل ضخمة. ومن المهم أن نلاحظ أن الذين يتخوفون على قوميتنا وعقيدتنا من الغزو الشيوعي العقائدي لها يتجاهلون الغزو الفكري والعقائدي والدعائي الاستعماري لقوميتنا وعقيدتنا.

ثالثاً - ان الخطأ والخطر هما في اعتبار العقيدة القومية شيئاً منفصلاً عن مصير أمتنا السياسي، ذلك أن العقيدة موجودة في حياة الأمة وفي الحرص على بقائها واستقلالها وتحررها وليس العكس صحيحاً، ولهذا فإن الخطر كل الخطر على عقيدتنا وقوميتنا كامن في تجاهل الأخطار والمؤامرات الاستعمارية التي تهدد وجود أمتنا فيما لو قضي على اتجاهها التحرري بحجة مكافحة ما يسمونه خطر العقيدة الشيوعية، لأن النتيجة الحتمية لذلك، ستكون تسليم أمتنا وأقطارنا فريسة سهلة لقوى الاستعمار الغاشم تنهب ثرواتها، وتفسد، أخلاقها، وتثير التفرقة والانقسام بين أقطارها، وتعد لتوسع اسرائيلي على حساب كيانها.

وليس أدل على صحة ذلك من أن قوميتنا وعقيدتنا العربية لم تكن أيام عدم أخذنا بالسياسة العربية التحررية، وأيام حجزها عن التفاعل مع العقائد الفكرية الأخرى. على مثل المتانة والوضوح التي صارت اليها اليوم. وإذا ما لاحظنا الضعف النسبي لقوميتنا وعقيدتنا العربية في الأقطار التي تسير على سياسة مغايرة للسياسة العربية التحررية، تحت ستار التخوف من الغزو الشيوعي، ادركنا أن الخطر الحقيقي الذي يهدد قوميتنا وعقيدتنا ليس التفاعل الفكري مع المذهب الشيوعي وإنما هو إبعاد

الاستعمار بوسائله المختلفة بعض الأقطار العربية عن السير في السياسة العربية التحررية تحت ستار التخوف من خطر الشيوعية الدولية . أن أنقاء الشيوعية العقائدية لا يكون بالسلبية وإنما بالعمل الايجابي، وفي مقدمة الأعمال الايجابية دعم الاتجاه العربي التحرري، والدفاع عن القومية العربية ضد هجمة الاستعمار الجديد وخطر اسرائيل . وكلما اتسع الصف التحرري وعظم تصحح الكلمة الأخيرة للعقيدة العربية والقومية العربية .

رابعاً - أن المعنى العملي لهذه الدعوة التي يقول بها الاستاذ مبارك يظهر ويتضح ويعلن عن نفسه من الوقت والظرف والملابس التي يقال فيها .

فصدور هذا الرأي في هذا الظرف بالذات عن رجل يعمل في الحقل السياسي له نتيجة واحدة عملية سواء رمى اليها أم لا، وهي أن هذا الرأي ذو ارتباط وثيق بالأحداث الجارية في الأردن، وفي الانقلاب الاستعماري الرجعي الذي وقع في هذا القطر العربي، كما أنه ذو صلة بما كان يراد بسوريا في المعركة الانتخابية الأخيرة من إتمام لهذا الانقلاب . وان من الخطأ اعتباره رأياً مدرسياً مجرداً، وإنما يجب ان يفهم على ان نتيجته العملية في حالة الأخذ به تكون جزءاً مما يبنيته الاستعمار للقومية العربية المتحررة من خطط ومؤامرات، من بينها تفكك الجبهة العربية المتحررة ليسهل وقوع كل قطر عربي على حدة في قبضة الاستعمار ويكون فريسة أسهل لأطماع اسرائيل .

ولا بد ان نذكر ان القومية العربية تواجه اليوم خطراً استعمارياً جديداً يتجلى في السياسة الأميركية المسلحة بوسائل الرشوة والافساد واستخدام القوة، وان من بين ماتستعين به أمريكا على ضرب القومية العربية المتحررة هي المبالغة بخطر الغزو الشيوعي الفكري لقوميتنا لتنسينا خطر الاستعمار واسرائيل .

إذا حقق الاستعمار مآربه في أمتنا فلن تكون لنا قومية ولا عقيدة وإنما ستهبط أمتنا الى درك القطعان المستغلة المستعبدة، وسيكون مصيرنا الذل والاستكانة ومحو معالم قوميتنا وعقيدتنا . وفي مثل هذا الحال لا يمكن أن يستقيم التفكير لا بالمثل ولا بالعقيدة .

١١ أيار ١٩٥٧